محاضرات في مقياس مصادر اللغة و الأدب والنقد .

السنة الأولى . جذع مشترك . السداسي الثاني.

وحدة التعليم المنهجية . الرصيد: 03 . المعامل:02 .

أ/ناصر عبد العزيز .

المحاضرة الثانية : اللغة العربية قبل عصر التدوين .

أولا- تدوين التراث :

إن تراث أي أمة هو ركيزتها الحضارية . وجذورها الممتدة في باطن التاريخ ومن أجل ذلك تحرص كل أمة في تأصيلها لواقعها على نبش تراثها واستلهام ما يمكن أن يكون له دور فعال في بناء واقعها منه.

والأمة العربية في حركة دائمة للنهوض بحاضرها منذ زمن طويل . وقد اقترنت هذه الحركة الناهضة منذ بدايتها بالبحث عن الأصول . والاستفادة من التراث الفكري والأدبي . حيث ظهرت المؤلفات الأدبية العامة منذ القرن 2 الهجري على يد عدد من علمائنا الذين صرفوا وقتهم في البحث والدراسة والاطلاع على تراث الأقدمين ورفدوه بمؤلفات قيمة ضمت خبرتهم وتجاربهم في ميدان الثقافة والمعرفة . وقد فرضت هذه المؤلفات وجودها وقتا طويلا من الزمن في البلاد العربية والإسلامية ومعظم بلاد العالم فانكب المفكرون على تعلم اللغة العربية ليتمكنوا من الاطلاع على هذه المؤلفات ودراستها وترجمة بعضها إلى اللغة اللاتينية ومن ثم إلى بقية اللغات الأوروبية. لأن الغرب بقي يعيش تخلفه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي طوال هذه الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام ولم يبدأ ازدهاره إلا بعد احتكاكه ، ومن هنا جاءت العناية بالتراث وسارت في اتجاهين هما :

1- الاتجاه الأول : يهتم بتحقيق المخطوطات القديمة تحقيقا علميا . ويوثق مادتها ويطبعها طبعات دقيقة فييسر بذلك تداولها بين الناس والمشتغلين منهم بالحضارة الإسلامية خاصة.

2- الاتجاه الثاني : ينصرف إلى دراسة المادة المستخلصة واستنباط المضامين الفكرية والروحية والإنسانية بعامة إلى تمثل جوهر ذلك التراث وعلى الرغم من تواصل الجهود من جانب المجاميع العربية والجامعات والهيئات الرسمية والأفراد ما يزال ما حقق من هذا التراث ونشره ليقاس حجمه بما هو منتظر من هذه العملية وما تزال الدراسات المتعلقة بهذا التراث تتلمس طريقها جيلا بعد جيل نحو بناء تصور أشمل وأعمق لهذا التراث ولمضامينه الإنسانية .

وهذه المصادر الأدبية واللغوية لم تظهر فجأة بل مرت بمراحل وأطوار من الإعداد والتمهيد . وهي مراحل تمثلت في الأتي : الرواية والجمع والتدوين للمعارف المختلفة متأثرة في الوقت نفسه بمراحل تطور وسيلة التدوين نفسها . وهي الكتابة اللغوية كما تتأثر بالأدوات اللازمة للكتابة وفي مقدمتها الورق فحين يتوفر شرط المعرفة بالكتابة وإتقان آلياتها . وتتوفر وسائل الكتابة اللازمة تنشط حركة التدوين .

ثانيا- تاريخ اللغة العربية قبل عصر التدوين :

تجمع الدراسات الحديثة على أن العرب عرفوا الكتابة منذ العصر الجاهلي . ولكن معرفتهم لها كانت في حدود ضيقة جدا . فقد عرف عرب ما قبل الإسلام الكتابة في مراكز التحضر المختلفة مثل الحيرة وبلاد الشام واليمن وبعض حواضر الحجاز مثل مكة والمدينة ويقال أنه عند مجئ الإسلام كان في مكة حوالى 17 كاتبا وفي المدينة 11 كاتبا . وإن كان يظن أن عددهم أكثر من ذلك . وقد تسربت الكتابة إلى بعض القبائل فى البوادي حيث وصلنا من أخبار بعض الشعراء أنهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة . فقد ذكر أن المرقش الأكبر وهو شاعر جاهلي كان يعرف الكتابة وذلك استنادا إلى قوله في إحدى قصائده :

الدار وحش والرسوم كـــما رقش في ظهر الأديم قلم

ويذكر أيضا أن أكثم بن صيفي التميمي وهو أحد خطباء الجاهلية كان يعرف القراءة والكتابة ، كما كان في قريش بعض النسوة يعرفن الكتابة ، وقد ذكرهن التاريخ مثل : الشفاء بنت عبد الله العدوية . والدليل أيضا على وجود من يعرف القراءة والكتابة في العصر الجاهلي أن القرآن الكريم لما نزل على الرسول (ص) كان لا يخاطب العرب إلا بما يعرفون فدعاهم إلى ضرورة استخدام الكتابة في معاملاتهم . حيث قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ..) البقرة:282 . وفضلا عن ذلك أقسم في أكثر من آية بالكتابة وأدواتها مثل قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) القلم:1 . وقوله أيضا : (وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ) الطور: 1-3 . كما ذكرت لنا كتب التاريخ أن الرسول (ص) كان يعتق الأسير مقابل تعليمه لعشرة من أبناء المسلمين .

ثالثا- آراء بعض الباحثين حول حركة التدوين وحجمها :

لم يترك الباحثون الأوائل مجالا للشك في كون عرب ما قبل الإسلام كانوا يعرفون القراءة والكتابة والشواهد على تأكيد ذلك كثيرة . وإنما وقع الخلاف حول وهو حركة التدوين وحجمها الذي كان مثار جدل ونقاش بين بعض الدارسين الذين اختلفوا في تحديد ذلك . فالخلاف أساسا حول حجم العملية أي المعرفة المدونة . خاصة في العصر الجاهلي . وينقسم الباحثون حسب آرائهم إلى فئات ثلاثة :

1- الفئة الأولى : وهي التي تنفي عن العرب تدو ينهم لمعارفهم وعلى رأسهم : (عمر الدقاق). صاحب كتاب : مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم . حيث يقول : لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة فقد غلبت عليهم البداوة واستغرق حياتهم التنقل ففشت فيهم الأمية ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضاري . حتى أن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبي جزيرة العرب وشمالها حيث توجد الأحجار والصخور. على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوبا وصحاري لم تسعف سكانها في ترك مياسمهم على الأرض التي عاشوا فيها أحقابا مديدة .

2- الفئة الثانية : وهذه تقلل من شأن العملية ولا تنفيها وعلى رأس دعاتها : المستشرق الفرنسي (ريجيس بلاشير) الذي يرجع دور الرواية الشفوية الى صيرورة الشعر الجاهلي وانتشاره حيث

يقول : لاشك في أن بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد الهامة ولكن ذلك يعوزه الدليل حتى ولو سلمنا بصحة وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءا من آثار الشعراء الحضريين أما البقية فقد سارت في الصحراء عن طريق الرواية الشفوية . وخلاصة قوله : أن للرواية الشفوية دورها في نشر الآثار الشعرية .

3- الفئة الثالثة : يؤكد أصحابها على أهمية العملية وعلى رأس مؤيديها (ناصر الدين الأسد) صاحب كتاب : مصادر الشعر الجاهلي إذ يقول : أن حجم التدوين لم يكن هينا . مشيرا إلى ما كان لدى النسابة (دغفل) من دواوين شعر الجاهليين ويشير أيضا إلى جمع النعمان بن المنذر ملك الحيرة للشعر العربي الجاهلي وتدوينه . ثم يشير كذلك إلى رواية ابن الكلبي عما أفاده من أسفار الحيرة ونقوش كنائسها و ما كان فيها من أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم .

رابعا - مصادر جمع اللغة العربية : يمكن إجمالها في الأتي :

1- القرآن الكريم .

2- الحديث النبوي الشريف .

3- الشعر العربي الجاهلي .